تعريف بالكتاب

للشاعر اليونانى اسخيلوس أكثر من حق واحد فى التنويه بروائعه الخالدة بين الروائع التى يكتبها الانسان المؤلف للانسان القارىء ، ولا تنحصر قيمتها فى التعبير عن فترة محدودة أو بلد واحد ، وله فى ذلك حق الابداع الفنى ، وحق العاطفة الانسانية ، وحق الذكرى التاريخية ، فهو فى المكان الأول بين أصحاب هذه المائدة ـ مائدة المعرفة ـ التى يدعى اليها قراء هذا العصر من عشاق الآداب العالمية .

كان اسخيلوس خالق المسرح الدرامى كما قال عنه أرسطو أكبر ناقد فنى فى أمته وفى الزمن المقارب لزمنه ، ولا تنقص شهادة اللاحقين من النقاد عن شهادة ذلك الناقد الأول قبل الميلاد بأكثر من ثلاثة قرون. فان الخطوة الواسعة التى خطاها اسخيلوس لم تتبعها خطوة أوسع منها فى القرون العشرين بعد الميلاد ، لأنه نقل المسرحية من حديث يلقيه متكلم واحد مع عشرات المنشدين الى رواية ذات فصول يشترك فيها ما شاء من عدد المتكلمين ، ويقل فيها عدد المنشدين ، لأن الانشاد فيها تابع للحوار وليس هو الغرض الأول من التمثيل ، ولم يزد على الدرامة بعد ذلك شىء ذو بال فى جوهرها ومحورها ، فكل ما استحدثه المحدثون بعده فانما هو من قبيل الحواشى والتفاصيل .

ويحق للشاعر اسخيلوس ، فى عصره وفى عصرنا هذا ، أن يسمى شاعرا انسانيا ؛ لأنه مؤلف بروميثيوس الموثق وبروميثيوس المطلق ، ولكنه حقيق باسم الشاعر الانسانى لغير ذلك مما ألفه من روايات وما عرضه فى تلك الروايات من عواطف قلبه ودخائل نفسه ، فهو الشاعر الانسانى فى تصويره لبروميثيوس صديق الانسان بين أرباب

اليونان الأقدمين ، وهو الشاعر الانسانى فى ستين أو سبعين مسرحية ذهبت كلها نسيا منسيا ، ولم يبق منها غير سبع محفوظات الى اليوم ، ولكنها كلها مثال للشعور الانسانى فى وصف الصديق والعدو ، ووصف المواطن والغريب .

كان بروميثيوس ربا من أرباب اليونان الأرضيين ، وكان أحد الأرباب المعبودين قبل أن يتولى عرش الأولمب زيوس بمعونته ومعونة أصحابه الأرباب الأرضيين الآخرين . ثم غضب زيوس على بنى الانسان فأضمر السوء لهم وأفضى الى خاصته أنه أعد لهم جائحة من جوائح القدر لا تبقى ولا تذر — لأنهم فانون يتشبهون بالخالدين — فحقت عليهم لعنة الأرباب أجمعين .

نعم . حقت عليهم لعنة جميع الأرباب الا الرب الذى هو صديق بنى الانسان بينهم : بروميثيوس ، أو (المتدبر) الذى ينظر الى الرأى البعيد فى كلمة Pro وكلمة Netheus أى النظر الى الأمام .

فهذا الرب الخالد المشفق على الفنانين خالف الأرباب جميعا وتحدى ارادة عظيمهم المطاع ، فزود بنى الانسان بسر الصناعة الذى احتكره الأرباب السماويون ، وأسلمهم زمام البر والبحر وكشف لهم الغطاء عن مسالك النجوم فى الآفاق حيث يعيش الأرباب المترفعون عن أبناء الفناء ، فكان جزاؤه على هذا التمرد الذى أيد به المتمردين أنه نفى الى جبال البحر الأسود وقيد هناك الى حجر كبير ينقض عليه العقبان ليشربوا من دمه ويأكلوا من أحشائه ، ثم يعاد ما شرب وأكل لتعود الجوارح المنقضة عليه الى شربه وأكله ، مضاعفة للاله الموثق فى العذاب .

الا أن الاله المتمرد — صديق المتمردين — يتحدى هذا العذاب المتجدد وينذر زيوس بسوء المصير ، لأنه يعلم من أمر الغيب سرا يجهله ولا يبوح به الا اذا أكره الاله الأكبر على السؤال عنه والاذعان للاله المغضوب عليه فيما يبتغيه لنفسه ولبنى الانسان .

وتنتهى الحلقة الوسطى بثورة عمياء من ثورات زيوس ينسى فيها حاجته الى الاله « المتدبر » فيرميه بالصاعقة الماحقة التى تذهب به الى الهاوية ، ثم يهبط ستار الزمن على الحلقة الثالثة التى ينطلق فيها بروميثيوس من قيوده ، لأن هذه الحلقة كانت احدى الروائع المنسية من المسرحيات الستين أو السبعين .

وقد تخيل الأدباء بقية القصة كلها على وجوه شتى يوافق كل منها من تخيلها فى اعتقاده وتفكيره ، وكان آخرهم — على ما نعلم فى العصر الحديث — بيرس شلى الشاعر الانجليزى الشاب الذى جعل القضاء الأخير بين زيوس وبروميثيوس فى يد القدر الأعلى الذى يحيط بالخالدين كما يحيط بالفنانين، وهو ذلك السلطان الأبدى (ديموجرجون) Demogorgon فى أساطير اليونان الأقدمين .

ويكفى اسخيلوس أن يختار لمسرحيته بين عباد زيوس بطلا ينصر بنى الانسان عليه ليستحق بذلك لقب الشاعر الانسانى بين أولئك العباد ومنهم — بل أكثرهم — كان ينسى أنه هو انسان اذا ذكر أن رب الأرباب هو المعبود المطاع .

ولكن الشاعر يعرب عن انسانيته الغالبة على شعوره بالعبادة فى كل ما كتب غير هذه المسرحية المقتضبة ، ولعله كان فى مسرحيته عن « الفرس » أعمق « انسانية » وأوسع عطفا على الأمم الانسانية مما نراه هنا فى مسرحية بروميثيوس الموثق وفيما نعرفه بالظن من تتمة المسرحية عن بروميثيوس المطلق ، وهو — على الأرجح — قد وفق بينه وبين القدر المطاع .

ففى رواية الفرس كان اسخيلوس أحق الشعراء الأقدمين بالنقمة عليهم ؛ لأنهم أعداء وطنه وأعداؤه الذين قاتلهم مع المقاتلين فى معركة ماراثون ، ولكنه وصفهم فى هزيمتهم فكاد يخيل لقارىء هذا الوصف أن الشاعر فارسى يذكر عبرة المنهزم ولا يذكر زهو المنتصر ،

وضغينة العدو ، وشماتة الصغير الغالب بالعظيم المتجبر عليه . ومثل هذا الشعور يطالعنا فى كل ما كتب الشاعر عن رب أو مربوب ، وعن صديق أو عدو ، وعن مقام الزهو والخيلاء أو مقام العظة والاعتبار .

أما حق هذا الشاعر القديم فى الذكرى التاريخية فهو حق الصاعقة الأولمبية فى عصر القذيفة الذرية ، وما أكثر الذين يوجسون فى عصرنا هذا من غضب السماء بعد انتزاع سر الأسرار فى باطن هذه الذرة الصغيرة التى تهون الى جانبها قذائف زيوس ونيران بروميثيوس !

ما أكثر الذين سمعوا صوت النذير الالهى ، ولا يزالون يسمعون صباح مساء ، ولو لم يسمعوا قبل اليوم باسم شاعر اليونان ولا باسم بطلة الاله المتمرد نصير المتمردين ، وما أكثر الذين سمعوا بقضاء الاوليمب على بروميثيوس وهم يتساءلون اليوم عما ينتظر خلفاءه المحدثين من قضاء السماء .

يسأل الأستاذ كرونبرجر فيما يلى من حوار :

— ألا تظن أن هناك سببا آخر ؟ لقد كان اسخيلوس شديد العناية بالصراع بين بروميثيوس وزيوس من حيث هو صراع دينى !

ويجيبه الأستاذ ميخالوبولوس — وهو يونانى يعرف أساطير بلده كما يعرف آدابها :

— لقد كنت على وشك أن أقول ذلك .

ويعود كرونبرجر قائلا : ولكنه يبدو أكثر من ذلك أنه صراع سياسى .

فيوافقه الأستاذ بريزون لأنه يرى أن المعنى الدينى مستنزف منه . والواضح من الأسطورة ، ومن حياة الشاعر ، أن المعنى السياسى والمعنى الدينى معا ، موفوران فى مضامين الرواية وفى الزمن الذى نظمت فيه .

فقد نظم الشاعر مسرحية وهو مهاجر من وطنه أثينا الى صقلية، فرارا من طغيان السادة المتحكمين الذين كان يشبههم بالمتحكم الأولمبى ـ زيوس ـ فى طغيانه على رعاياه الفنانين والخالدين ، وفى استكانة الراضين بذلك التحكم بين الأثينيين كما استكان عباد زيوس لقضائه على أبناء الأرض وأبناء السماء .

وقد نظمت هذه المسرحية وناظمها يوشك أن يودع الحياة حائرا بين حقائق الدين وقضايا العقل ووقائع السياسة ، ولم تكن حيرته تلك الا نسخة قديمة من هذه النسخة الحية التى تجددها مخترعات العلم فى زماننا وشكوك الناظرين بين فتوح العلم على الأرض وفتوحه فوق أطباق الفضاء الى أعنان السماء .

وكل سؤال وسوست به الشكوك فى خلد الشاعر الحائر فانما هو سؤال سابق تلحق به هذه الأسئلة الكثيرة عن مشيئة القدر وحكمة الله ونصيب الانسان مما يصنعه بيديه ويتحدى به ارادة الأقدار على أبواب الغيب المجهول .

وقد أودع اسخيلوس شكاواه السياسية وشكوكه الدينية مضامين المسرحية الفنية التى لم تكتب للسياسة ولا للدين ، وهى حقيقة ينبغى أن نلتفت اليها فى الزمن الذى يكثر فيه المتحدثون عن الأدب الهادف ويوجبون على الشاعر أن يقصد الى الهدف كأنه يستطيع أن يغفل عنه ولو صرف عنايته كلها الى فنه وشعره ولم يقصد الى شىء غير تجويد الفن واجراء الشعر البليغ فى مجراه ، فهذه المسرحية اليونانية القديمة مثل للفن الذى يخرج من عبقرية الفنان هادفا على غير قصد منه ، معبرا عن خلجات الفكر ودخائل الضمير ولو لم يفطن لها القائل ولم يترقبها منه قراؤه ومستمعوه .

ونحن نصحب الشاعر القديم فى منتصف الطريق لأننا لم نبدأ معه الرحلة من مقدماتها ولم نصل معه الى نهايتها . ويلوح لنا ههنا أنه يفارقنا ونفارقه فى رحلته مع معلم الصاعقة للناس ورحلتنا مع الذين

علمونا القذيفة الذرية ، لأنه ينصف بروميثيوس المتمرد ولا ينصف زيوس الغاضب عليه ، ونخال أننا لو التقينا به فى فصله الأخير لما افترقنا معه عند نهاية الطريق — لأن شراحه يحسبون من مقدماته أن بطله المتمرد قد عاد فسمع من رسل الأوليمب كيف أحسن الناس صنعا بما تعلموه منه وكيف عادوا فأساءوا الى أنفسهم وأساءوا الى السماء بكل صناعة أتقنوها ، وكل علم تعلموه ، وكل سلاح قدروا عليه .

قال أولئك الشراح : انه عقد الصلح بين زيوس وبين بروميثيوس المطلق على شروط الانصاف للقدر وللمتمردين عليه ، وشهد آخر الأمر أن العلم قد يوضع فى رأس الانسان أحيانا كما يوضع السلاح فى يد الطفل العربيد وخير له أن يأخذ الغمد ويؤتمن عليه قبل أن يؤتمن على السيف المشهور .

ولعلنا لا نقول اليوم غير ذلك فى هذا النداء الى وقف التجربة الذرية بعد أن ملأنا بها آفاق الفضاء .

عباس محمود العقاد